

المقصد

تاريخ الحضارة

مترجم عن الإفرنسية

علم الكلام - بقي علم اللاهوت خلال القرون الوسطى العلم الرئيسي (والمدرسة اللاهوت في جميع الكليات التقدم على كل المدارس) وقد توفر على الفلسفة خاصة أرباب العقول العاملة وكان لمشاهير علماء القرون الوسطى أمثال آييلاروسان توما ودونس سكوت وألبر الكبير القدح المعلى في الفلسفة وليس علم المدرسة أو علم الكلام سوى فلسفة مطبقة على اللاهوت فكان المتكلمون يتقبلون تعاليم الكنية كلها. قال كيتوند أسقف فرنسا لا يجب أن يفهم المرء أولاً ليعتقد بعد بل يجب أن يعتد أولاً ليفهم بعد ذلك. وقال سان توما بعد حين من الدهر: إن حقيقة العقل ليست على تناقض مع حقيقة الإيمان المسيحي. ثم أن علماء الكلام درسوا فلسفة أرسطو (عرفوها من ترجمات ردينة باللغة اللاتينية نقلت من ترجمات عربية) وقد أعجروا بمنطقه فكانوا يذهبون إلى أهم باستعمالهم طرق البرهان يحلون المسائل التي لم تحلها الكنية. وهذه المسائل: قد تكون دقيقة مثل قول بطرس لومبارد: إذا كان الله يقدر أن يعرف من الأشياء أكثر مما يعلم. وقال دونس سكوت: إذا كانت الصعوبة

في أن يكون مولوداً هي خاصية في تركيبة الشخص الأول في اللاهوت. وقال سان توما: إذا كان جسد المسيح عاد إلى الحياة وعليه جروح وفيما إذا كانت الحمامة إلى ظهر فيها الروح القدس هي حيوان حقيقي.

وكان علماء الكلام من أكبر العاملين فقد مات دونس سكوت (الدكتور الخقق) في الحادية والثلاثين وقد ألف ١٢ مجلداً من قطع النصف ولخص سان توما (الدكتور العام) في كتابه السوم جميع أفكار العصور الوسطى وعلى كتابه المختصر المعول في اللاهوت بالمدارس الإكليريكية الكاثوليكية. واخترع ريموند لول في القرن الرابع عشر الصناعة العظمى وهي أداة للبرهان يتأتى بها حل جميع المسائل بدون استخدام الذهن. وإذا كان المتكلمون لا يستخدمون إلا البرهان الاستقرائي دون ملاحظة الحوادث لم يزيدوا شيئاً على العلم البشري وظلت فلسفتهم كما يقولون هم أنفسهم خادمة لعلم اللاهوت.

خزائن الكتب والأدب العلمي - كان في الديار العظمى أبداً بعض القسوس لا عمل لهم إلا استنساخ الكتب وتزيينها فينقلون المخطوطات التي استعارها أديارهم من غيرها. وعلى هذه الصورة أسست خزائن الكتب فلم تتجاوز بضع مئات من المجلدات (فمكان في فيكان ١٤٨ وفي سان يفروول ١٣٨) لأن الكتب كانت نادرة والرق عزيماً وجميع الكتب كانت باللاتينية ومعظمها كان كتب عبادة وتنسك مثل الكتاب المقدس وآباء الكنيسة وكتب الطقوس وحياة القديسين وكان القسوس على صلابتهم لا يسرحون لغير هذا النوع من الكتب ويقولون أن كتب شيشرون وكتب فرجيل لا تنفع في سلامة النفس بيد أنه كان في بعض الأديار التي يغلب عليها حب الأدب بالأكثر شيء من المؤلفات اللاتينية الأخرى مثل مصنفات شيشرون وفرجيل وهوراس وبلين لجون والتعزية لبريس.

كتب رجال الإكليروس كالأساقفة ورؤساء الأديار والقسس في القرون الوسطى كثير من المؤلفات لأنفسهم فكانوا يؤلفون في الشعر والأدب ورسائل في اللاهوت وتواريخ يسرد فيها جميع أحداث العالم منذ البدء إلى زمن المؤلف ووقائع مؤلفة من أخبار جافة جداً تكتب سنة فسنة تذكر فيها أخبار المجاعات والأوبئة والمذنبات والحروب ووفاة الملوك أو رؤساء الأديار. كل ذلك باللغة اللاتينية وإنشاء مطول مزهر مصنع نكث فيه الامتهدادات أشبه بلغة تلميذ يتعلم اللاتينية. وكان رجال القرون الوسطى جناء الفكر يعتقدون أنفسهم أحط جداً ممن سلفهم ولا يطعنون إلا في أن يقلدوهم وانك لتجد في آدابهم بعض الأفكار صرح بما بقرة وبعض صحف حية في تواريخهم ولكن أدبياتهم أديبات طلبة فهم طلبة اجتهدوا وأعوزهم الإبداع.

أدب العامي - أم عاه المدن والقصور ممن لا يعرفون اللاتينية فقد اقتضت لهم كتب باللغة العامية لغة الرومان (المشتقة من اللاتينية) وهكذا نشأ نحو أواخر الحادي عشر الميلادي الجديد فابتدأ من الشعر كما جرت العادة في أنواع الآداب فسوا هؤلاء الشعراء المتجولين وهم الذين يتجولون في شمالي فرنسا ويؤلفون أشعارهم بالفرنسوية ويسمون شعراء الجنوب الطوافين وهم يؤلفون بلغة أقاليم البروفانس (البروفانسال) وكان بعضهم فرساناً وصناعة الآخر الشعر ويسمونهم المشعدين كانوا يذهبون إلى الأسواق الكبرى حيث يجتمع أغنياء التجار ويقصدون قصور أعظم السادة في أيام الأعياد ويعنون ومعهم ربابة صغيرة وهذه الشعار ذات الثمانية أو العشرة مقاطع سميت بالأغاني لأنه كان يتغنى بها وسميت (بلغة البروفانسال الرومانية) لأنها كانت باللغة الرومانية. وكان شعراء الجنوب أكثر حفة ولغوا فينظمون قطعاً صغيرة من الهجاء أو أغاني العشق أو أغاني الليل أو غاني السحر. وشعراء الشمال أميل إلى الجد يترفون بالحروب والغارات وهجمات شارلمان ورفاقه وارتور ملك الغال وبحروب

الإسكندر فكانت أغاني العمل وقد نظموا من هذا القبيل مدة ثلاثة قرون في الولايات الفرنسية في الشمال ووجد في أيامنا منها زهاء ألف قطعة في مخطوطات منسية من القرن الرابع عشر ومن يعلم كم فقد من نظائرها. ومن المتفق عليه أن أجملها ما كان قديماً مثل أغاني رولاند وراول دس كامبري وكارن لوهرين وأشعار كريت دي نروا. ومما يسقم قصائد القرون الوسطى سواء كانت بلغة الرومان أو اللغة اللاتينية الهوس في التقليد والشرح واذ لم يكن لشعراء القرن الثاني عشر أمثلة يحتذونها ذهبوا مع الطبع ونطقوا بما شعروا به ووصفوا ما رأوا. ولم يأت الشعراء في القرون التي غير التوسع في القصائد القديمة وأصلحوها ثم حدثت القصائد ذات العشرين والثلاثين ألف بيت التي لا يحكم على غير المتأدين بتلاوتها.

منشأ الهندسة الرومانية - لما أخذ المسيحيون في القرن الرابع يحتفلون على ملأ الناس بعبادتهم كانوا يجتمعون في كنائس كبرى وهي قاعات عظيمة مطحة المقف تكون محكمة مدنية وسوقاً للتجار في آن واحد فكان المؤمنون يقعدون في ساحة التجار أو الصحن وهو مقسوم إلى رواقات تقسمها صفوف من السواري ومحل الخكمة على شكل نصف دائرة وأعلى الصحن كان بمثابة محراب يجلس فيه الأسقف أو القس. وقد احتفلت الكنائس المسيحية زمناً باسم البازيليك (البيعة الكبرى) وصورتها أن تتألف من صحن كبير على جانبها صحنان صغيران ومحراب يسمى عقداً بسبب العقد الذي يغطيه ثم تصوروا أن ينوا في مقدم الكيسة برجاً أو برجين يجعلون فيه الأجراس وأن يستعصوا عن السواري الخفيفة بدعائم مصمتة وأن يجعلوا بدلاً من الخشب والسقف المسطح المعرض للحريق بناء من حجر على شكل عقد وبذلك نشأت هندس جديدة سميت الرومانية لأنها نشأت في بلاد الرومان. فقد بدأت في إيطاليا الشمالية وجنوبي فرنسا في القرن الحادي عشر ولكنها انتشرت في جميع أوروبا

الغربية والكنائس الكاتدرائية الكبرى في ورمس وسير في ألمانيا هي كنائس رومانية ولا يزال في كثير من القرى في وادي الرون أو في أوفرنيا ونورمانديا كنائس قديمة على الشكل الروماني إذ لم تمكنها حالتها المالية من إبدال ذلك القديم بطرز من البناء الجديد.

الهندسة الرومانية - لما كانت الكنائس الرومانية قد بنيت في بلاد مختلفة وعصور متطاولة على يد مهندسين لم يتبعوا أصولاً واحدة في الهندسة فقد بعد الشبه بينها ولذلك لا ترى لأوفرنيا هندسة خاصة بها ومثل ذلك لنورمانديا وألمانيا. ولكنها كلها ترجع إلى مبدأ عام وهو أن الجزء الأكثر زينة أي الواجهة متجهة نحو الغرب وقبة الجرس (وأحياناً تكون قبتان) تقوم فوق الواجهة وتنتهي بذروة محدودة وتشرف على الكنيسة بأسرها والرتاج أو الباب الأعظم يكون في أسفل الكنيسة ومنه يدخل المصلون وهو نجاباً منقوشة وأحياناً لا يبع الداخل الرتاج قبل أن يجتاز دهليزاً وهو ذو سوار في مقدم البناء والرتاج يؤدي إلى صحن الكنيسة الأعظم في الوسط وعلى الجانبين عمد متينة تضمها أروقة تمل الحوائط الداخلة التي تجتمع في أعلى البناء فيتألف منها عقد ومن كل جهة من الصحن الأكبر بين صف الأعمدة والحائط الخارجي من الكنيسة صحنان صغيران ويسميان الجانبان الواطنان فالصحن الكبير والجانبان الواطنان بفضل بينها رواق عريض عال ينتهي في كل طرف من أطرافه برتاج متطرف يشبه رتاج الواجهة (وأحياناً تعلوه قبة جرس) ثم يكون الجورس على شكل مدور على خط مستقيم مع الصحن الأعظم ولكنه أعلى منه بضع درجات والصحنان الواطنان يمتدان على جانبيه وكثيراً ما يحيطان به من الورداء وكل هذا الشطر من البناء الذي يسمونه الرأس مغطى بقبة.

وتحت الخورس غرف معقودة وهي الناووس فيها ذخائر القديسين وتضيء الكنية بنوافذ تطل على الصحنين الواطنين أو الصحن الأعلى وقد أقيم في الخارج لتدعيم الحوائط الخارجية لتحمل ثقل العقود الباهظ دعائم قوية جعلوها سندا من جانبي الكنية بين النوافذ وأرتجة الصحنين الواطنين وقباب الجرس كلها وأقيمتها ونوافذها على صورة العقود أي على شكل نصف دائرة مثل البنية الرومانية القديمة وقد جعل شكل الكنية على صورة الصليب ورجله الذي هو عبارة عن ثلاثة أرباع مجموع رقعة المكان مؤلف من الصحن وما على جانبيه من الصنائين الواطنين وفيه يجتمع الناس والرواق العريض العالي يمثل ذراع الصليب والرأس المدور هو القلب وهو اغل المقدس من الكنية يجلس فيه رجال الدين وتقام فيه الحفلات الدينية.

هندسة رسم البيكارين - بدأ المهندسون الذين بنوا الكنائس نحو القرن الثاني عشر يستعوضون عن العقود المدورة بعقود على رسم البيكارين. وقد احدث هذا الاختراع الذي تيسر به إنشاء عقود أعلى وأخف انقلاباً في هندسة الأبنية. فظل الرسم العام في الكنية واحداً: صلياً رجله الصحن ورأسه محرابه (خورس) وبلكن بدلت جميع تفاصيل البناء إذ بنيت العقود كلها على رسم البيكارين لا على صورة قوس فارتفع الصحن الوسط إلى علو شاهق وارتفع الصحنان الواطنان أيضاً وأصبحا فنائين حقيقيين. واستغني عن العمدة المصمتة التي كانت تمسك العقود بجملته من العمدة الصغيرة الخفيفة وجعل فوق الإسناد التي تمسك فوق الحوائط الخارجية زوافر (نصف قناطر) عظي مارة مثل جسر هوائي فوق الصحن تدعم حائط الصحن الأكبر الأوسط من جهة واذ كانت القناطر الضيقة موطدة البنيان على هذه الصورة ساغ أن تكون فروج البناء أكثر علواً وسعة فانفرج الحائط الذي كان في الكنية الرومانية يشغل أكثر من نصف الجانبين وجعلت مكانه نوافذ. فغدت النوافذ القسم

الرئيسي من الكنيسة وهي على ضروب متنوعة منها نوافذ على شكل المضع تعمل لقباب الأجراس خاصة وهي فروع عظيمة تقسمها عميدات طويلة رقيقة إلى قسمين وتشبه فرجة تتخلل الكية من أعلاها إلى أسفلها والنافذة من الجوانب الخارجة مزينة منقوشة من داخلها وخارجها بتخاريم من الحجر زينت بالزجاج وفوق الأرتجة نافذة عظمى مدورة يسمونها الوردية وهي أيضاً تتخللها تخاريم على شكل الورد وليس للسواري تيجان بل تنتهي في ذروتها بباقة من الورق معمولة من الورق.

تغشى الكية كلها من داخلها وخارجها نقوش من الحجر فنسجها ما هو على الرتاج والنوافذ فوق الإسناد وفي طرف الزواجر وفي جميع طبقات قبة الجرس ومقدم البناء. ولقد مهر النقاشون فغدوا ينوعون تزييناتهم فكانوا يرسمون أوراق الحجر على مثال نبات البلاد مثل القراض والعوسج والحسك والورد وعليها مسحة من الظرف وتمائيل القديسين التي لا تزيد الأرتجة والكوى والمشاهد المصورة فوق الرتاج مشهورة بما فيها من الحياة والحقيقة وتمثل الميازيب حيوانات خيالية وشياطين غريبة الصور أو بضعتها معلقة في الفضاء وكل ذلك اختراع غريب مستفيض. وصور القبور ولاسيما في القرن الخامس عشر كثيراً ما تكون من بدائع النقش وقد بدأت هذه الطريقة في البناء نحو القرن الثاني عشر في أرباض باريز من أملاك ملك فرنسا (وربما كان ذلك في كيسي سان ديني ونويون) ومن هنا انتشرت في أنحاء فرنسا كافة ثم في سائر بلاد أوروبا وكانت هذه الطريقة هي المعول عليها منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر في كل من فرنسا وألمانيا وإنكلترا. وأخذ المهندسون الإيطاليون في القرن السادس ينون على مقال القدماء فنازعوا بذلك هندسة القرون الوسطى نزاعاً شديداً إذ كانوا اتخذوا بمثابة اختراع للبرابرة الذين داهموا إيطاليا وهم الغوت فقد سموا الغوتي وبقي هذا التعبير لتحقير هذا الطراز من

البناء يطلق عليه. وليس من ينكر اليوم أن الهندسة الغوية هندسة متانة وإبداع فأجمل كنانس القرون الوسطى مثل كنيسة نوتردام دي باري وكاتدرائيات ريمس ولاون وأمين وبوفي وكولون وستراسبورغ وبال وفريبورغ كلها كنانس غوتية.

الطرز الغوي المدني - استعملت الهندسة الغوية بادئ ذي بدء للكنائس ثم استعملت في لأبنية الأخرى. ففي القرن الرابع عشر والخامس عشر خصوصاً نهض بعض السادة وأغنياء المدن فبنوا لنفسهم قصوراً وفنادق وبت المدن مجالس بلدية ولا يزال كثير من هذه الأبنية باقياً إلى اليوم أثراً باهراً من آثار الهندسة ففي إقليم الفلاندر مجالس البلديات في بروج واير وأدونارد وفي فرنسا قصر العدلية في روان ونزل جاك كور في بروج. وأهم ما في هذه الأبنية المدنية مقدم البناء فهي في المجالس البلدية تشبه مقدم بناء الكنية والمرتب يوم مقام قبة الجرس وواجهة الفنادق خاصة تطل في العادة على على فناء داخلي ويفصل بين النوافذ صليب من الحجر (ومنه اشتق اسم المشك) وهي مزينة بأبراج صغيرة من الورق وقد فتحت في السقوف طيقان بديعة والأجنحة والأبراج على شكل حقة القفل وهي في جميع الزوايا بارزة عن الواجهة والزوايا كلها مزودة بتماثيل صغيرة وداخل الحجر مزين بغصون أو صور منقوشة بالوان جميلة. وربما لم تعمل أبنية كهذه في البهجة واللطف.

الطرز الغوي المتألني - كلما تقدمنا نحو أواخر القرون الوسطى رأينا الكنائس مغطاة برسوم ونقوش متنوعة بديعة وأكثرها في الاستعمال ورق الملفوف المعوج اعوجاجاً غربياً فالكنيسة كانت وإحالة هذه تشبه شيئاً من بر وهذا ما يسمونه الغوي المشعشع شاع في القرن الخامس عشر خصوصاً وأهم ما صنع منه في ذلك العصر كنيسة وستمنستر في إنكلترا وبرج سان جاك في فرنسا وسان أوان في روان. واعتاد القوم أن يزهدوا في الطرز الغوي المتألني وأن يعدوه إفساداً للطرز الغوي الخالص. لا

جرم أن أجل الكنائس بناء هي من العهد الأول لاختراع الطرز الغوتي ولكن معظم الدور الجميلة هي من بناء القرن الخامس عشر.

صفة البناء الغوتي - لم يتفق الناظرون على التأثير الذي ينشأ من الكنائس الغوتية فإن معظم الزوار تملك عليهم مشاعرهم بما يرووه من جلال تلك العقود العالية والسواري الصغيرة كالغاية بكثافتها وهي في الجو محلقة وننظر هذه القباب للأحراس المحددة والأوراق المعوجة والغيلان التحيلة والأنوار التي ترسل من خلال الزجاج الملون وقفص الحجر والزجاج الذي يظهر أنه لا يقوم إلا بمعجزة كل ذلك مما يحدث اثر صناعة قابلة العطب ومخالفة للطبيعة واجتهاد قوي لبلوغ السماوات العلي. ومن هنا نشأ هذا الرأي الشائع وهو أن الهندسة الغوتية هي نتيجة سامية لعصر متألم تعذبه الحاجة إلى اللانهاية. ويقول بعض أهل هذه الصناعة أن هذه الهندسية على العكس تمتاز بنظامها المعقول وترتيبها المدقق في أطرافه وأعطافه والتأثير العام الذي يحدثه تأثير حياة قوية راقية فيها البهجة والأنس.

التوسع في الحريات السياسية وارتقاء الطبقات النازلة

تحرير المدن

صكوك التحرير - معظم مدن فرنسا قرى قديمة يملكها أحد السادة على ما استبان من أسماؤها فإن (فيل) (المدينة) أو في معناها المحلة حتى أن المدن التي يرتقى عهد تأسيها إلى الرومان قد سقطت في أيدي أساقفتها (مثل أمين ولاون وبوفي) أو في يد الملك (مثل أورليان وباريز) أو في أيدي بعض الأمراء (مثل أنجر التي كانت للكونت دأنجو وبوردو للدوق أكيتين) فكان السيد أو وكيله يحكم كما يحكم السيد على سكانه فيكرهمهم على أداء المال ويقضي بينهم ويحكم عليهم وكثيراً ما يأخذ منهم